مع حافظ فى ديوانه

بمناسبة ذكراه

للاستاذ عبد الفتاح بركات

سلام على شاعر النيل ، مازال ذكره حبيباً ، تهتز له المشاعر بالطرب والإعجاب ، ولقد أطل (يوليه) (١) فبدا لى كأنه طيفه الأغر على حافة الأفق ، يدعونى اليه ؛ وما هى إلا نقلة من قدم حتى وجدتنى أجالس حافظاً فى (الديوان) أستمع إلى حديثه ، وكم فى حديثه من عذوبة تخلب ، وسحر يفتن ... قلت . . . لقد عجز جيلكم بالثورة فى كل شىء ... فى السياسة ، والأدب ، والاجتماع . فأحدثتم حياة جديدة هى منة فى أعناق الاخلاف

١ — توفى حافظ فى ١١ يوليو

مثالية الرجال . وهو ، هنا ، قد نجح .

أما نجاح دعوته فأعتقد أن دعوته الصحفية قد نجحت ، من ناحية الأسلوب والمستوى ، نجاحا كبيرا ، ودعوته السياسية نجحت من الناحية النظرية ، وكذلك دعوته لتنبيه الشعب إلى حقوقه . أما دعوته لإصلاح الأزهر وإصلاح المقيدة فقد نجحت خارج الأزهر أكثر مما نجحت فى داخله .

لقد قال حافظ إبراهيم ، يرحمه الله ، فى رثائه البارع للأستاذ الامام هذا البيت : —

زرعت لنا زرعاً ، فأخرج شطأه ،
وبنت ، ولما نجتن الثمرات

وحقاً مات الشيخ ولما يجتن ثمرات كفاحه ، وأعتقد أننا — بعد هذه السنين الخمس والأربعين من وفاته — لما نجتن ما ينتظر من ثمرات ، ولعلنا نجنى فى المستقبل أكثر مما جنينا من الثمرات التى غرس بذورها الشيخ الامام .

هذا الرجل المخلص ، الشجاع ، الجلد ، المتفانى ، الذى قضى عمره كله يكافح الجبروت والطغيان والفساد والجهل ، مات فقيرا جهد الفقر . ولا يمكن ، فى وطننا ، أن يموت رجل هذه صفاته ، إلا فقيرا . وعاشت زوجه من بعده معيشة ضنكا ، لم يرفه عنها فى ختام حياتها سوى تلميذه الوفى أستاذنا المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق ، رحمه الله ، ورحم أستاذه الامام .

محمود الشرقاوى

جعلت لكم حق التقديس والاكبار ... ولعل قضية المرأة كانت أبرز معالم تلك الثورة إذ تناولها بالبحث والنظر كثير من قادة الفكر وأرباب الرأى ، وإذ ذكرت تلك الصفوة الممتازة فشاعر النيل منها فى الصف الأول . فماذا يرى ؟

قال — رأيت فى المرأة أنها الأصل والمجتمع أثر لها ، متأثر بها ، فهى الأم الوالدة ، والأستاذة المرشدة ، وأن أفضال الجماعة من غرسها ، وأوزارها من بذرها ؛

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

وتلك مقدمة نتيجتها أن تربى المرأة تربية صحيحة صافية ، وطريقة ذلك إذا أردناه أن تكون الشرقية غربية فى العلم والثقافة . بهذا خاطبت (ملك) حين بكيتها .

إنى أرى لك سيرة كالروض أرجه الزهر
قد كنت زوجا طيبة فى البدو عاشت والحضر
غريبة فى علمها مرموقة بين الأسر

واسترسلت فجدت فى شخصها صواحب الرأى والفكر:

لله درك إن نثرت — . . . .

أما حريتها — يعنى المرأة — فقد أردتها مقيدة محدودة بعرف الاقلام والدين .

أنا لاأقول دعوا النساء سوافراً بين الرجال يجلن فى الأسواق
يفعلن أفعال الرجال نواهيا عن واجبات نواعس الأحداق

وبحيث لاتفيض شرقيتها وتضيع . قلت عن (ملك)

شرقية فى طبعها مخدورة بين الحجر

وكأنه أحس بى ميلا إلى الكلام فارتفع صوته بعض الشىء وهو يقول — حذار أن تظن بى رجعية تجذب نظرتى إلى الوراء فهذى قوافى الثوائر تنقض على تراث التقاليد ، وعتيق العادات هادمة محطمة ، ترفع عن المرأة الإصر ، وتفك من عنقها الغل ،

ليست نساؤكم حلى وجواهراً خوف الضياع تصان فى الأحقاق
ليست نساؤكم أثاثاً يقتنى فى الدور بين مخادع وطباق
تتشكل الأزمان فى أدوارها دولا وهن على الجدود بواق

وأنا بين التقييد والاطلاق لا أبغى غير الوسط والاعتدال .

فتوسطوا فى الحالتين وأنصفوا — فالشر فى التقييد والإطلاق وأن تكون التربية قائمة على أسس وطيدة من الفضيلة والأخلاق

ربوا البنات على الفضيلة إنها — فى الموقفين لهن خير وثاق

وعلى ضوء ما قدمت بين يديك طوقت أجياد نسوة المظاهرة أيام الثورة الكبرى بقصيدة صيغت كلها بالثناء والإكبار . وصفوة ما أقوله فى المرأة أن البيت خير مستقر لها ، وهو عالمها الأفضل ،

وبحال جهادها الأكبر .

فى دورهن شئونهن كثيرة — كشئون رب السيف والمزراق

ولا يغيبن عن البال أن هذا هو ما قال فيلسوف الشرق والإسلام « جمال الدين » (٢) .

قلت — ولكن قيل عنك أنك كنت عائما على السطح لا تغوص فى القاع (٣) وغالى أهل هذا الرأى فرووا عنك أبياتا قلتها فى رثاء « قاسم أمين بك » سلكت فيها مسلكا حياديا فلم تتعرض لأفكاره فى المرأة بالتأييد أو التفنيد وتلك هى الأبيات .

ورأيت رأيا فى الحجاب ولم تمس فتلك مراتب الرسل

الحكم للايام مرجعه فيما رأيت فنم ولا تسل

فإذا أصبت فأنت خير فتى وضع الدواء مواضع العلل

أولا فحسبك ما شرفت به وتركت فى دنياك من عمل

فقال — وماذا كان يراد منى يا فتاى . . لقد أتيت بما لا يمكن غيره ؛ فالقول رثاء يرسل لفقيد ، ودموع تنثر على قبر ، والرثاء من قديم مدح باك ، وعلى هذا الدرب سار الشعر العربى حديثه وقديمه ، لم يحد عنه . وما كان لمثلى أن يخرج على أسلافه القدماء وأقرانه المحدثين ليهدم رجلا يبكى عليه ويتحسر ، أو ليهبه التأييد المطلق وهو يكن فى نفسه رأيا خاصا قد يخالف ما يغنى « قاسم » وارتآه . فأكون كما قلت :

وهذا يصيح مع الصائحين على غير قصد ولا مأرب

وما أسلفت كاف لتجريد الأبيات من وجه الإستدلال فلا تنهض حجة على أفكارى وآرائى ، وإلا فلماذا لم يتكرر مثل هذا الموقف مع السيدة « ملك » ؟

وإنه لواجب أن تحاط علما بأن كتاب « قاسم » فى المرأة أحدث هزة عنيفة ، وقيل عنه حينذاك بأنه يدعو إلى الحرية المطلقة ؛ وكم فى هذه الدعوة من جرأة جديرة بأن تكون عذراً يصرفنى عن قراءة الكتاب .

فالأمر لا يخرج عن كونه تباينا بين رأيين . أما الرجل نفسه فعلم شامخ من أعلام نهضتنا الحديثة له قدره وخطره ، وإنم فى حق الوطن كبير لو لم أرثه وأبكيه إذ فقدناه ، ولقد فعلت فوفقت

(٢)

. . . وتمايثت بشىء فى يدى ، وأنا أتلو بصوت خفيض — كأنى أحدث نفسى . .

لمحت من مصر ذاك التاج والقمرا فقلت للشعر هذا يوم من شعرا

بادولة فوق أعلام لها أسد تخشى بوادره الدنيا إذا زأرا

أعزى القوم لو سمعوا عزائى وأعلن فى مليكتهم رثائى

وأدعو الانجليز إلى الرضاء بحكم الله جبار السماء

وهنا التفتت إلى وفى نظرته القوية آيات الاحتجاج ثم قال — ماذا ؟ : ماذا تريد ؟

قلت — أما أنا فلا أريد شيئا . . وإنما هناك (٤) من يريد أن يؤاخذك على قصيدتين : إحداهما فى مدح « إدوارد السابع » والثانية فى رثاء الملكة « فكتوريا » ومنها هذه الأبيات .

قال — يا محدثى . . إنما هى نزعة إنسانية جارفة تحكمت فى شعرى السياسى تحكم القضاء فى ابن الفناء ، فجعلتنى أمدح العدو ورثيه ، ولا يستطيع منصف ناقد أن يعيب على مسلكى فقد مدحت الانجليز فى بلادهم وحاربتهم فى بلادى عنيفا قاسيا ، وليس هذا فى شرعة الحق بمستنكر ، وهاتان القصيدتان إن دلتا على شىء فإنما تدلان على خصلة حميدة فى شعب مصر تعلى من شأنه وترفع ؛ فهو لا يحارب فى الأجنبى جنسيته وإنما يحارب فيه أخس طباعه وهو إستعماره للبلاد ، واستعباده للناس . . ولكل إمرىء بعلم مقدار حبى لأمة اليابان وإعجابى بها ، ولكن ذلك لم يعنى مطلقا من أن أقف فى الحرب بينها وبين الروسيا موقفا إنسانيا يفر منه الضمير ، فتمنيت على الفريقين أن يتخذا آلات التدمير والهدم .

عز ربى هل أبصرت فيما مضى وأنت ذاك الكيس الأمهر

كذلك الدفع فى بطشه إذا تعالى صوته المنكر

ومثل ذاك كثير .

. . وإلى هنا انتهت جلسة ممتعة هى فى حساب العمر أسعد أوقاته ؛ وما كنت أود أن تنقضى ، ولكن من من الناس نال كامل مبتغاه .

طنطا عبد الفتاح برڭات